د. عـــواطف عطيـــل لموالـــدي
جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف

# ابن خلدون وعلم العمران البشري

**ملخص:**

ارتبط اسم العلامة البحاثة ابن خلدون، بعلم العمران البشري، الذي عرف بعده بخمسة قرون **بعلم الاجتماع** أو **السوسيولوجيا La Sociologie** حيث كان المنشئ الأول له، والمجدد لعلم التاريخ وتراث التربية وعلم النفس، وعلوم الحديث والفقه، فلم يغادر فرعا من فروع المعرفة، إلا ألم به، حتى فنون السحر وأسرار الحروف وغيرها. فكان بحق، وسيظل "**عبقرية إنسانية خالدة**" ينهل منها اللاحقون عليه من العلماء، من مشارق الأرض ومغاربها. وضمن هذا المقال، سوف نتناول التعريف بابن خلدون ونشأته وتكوينه الفكري، ثم نعرض باكورة أعماله في الفكر الاجتماعي، والتي تبلورت في علم العمران البشري، وظروف نشأته، وكذا مفهومه ومجالاته، كما وردت في مؤلفاته: "**المقدمة**" وكتابه الكبير في التاريخ والموسوم بـ:"**كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**"، إضافة إلى كتابه "**رحلة ابن خلدون**".

**الكلمات المفتاحية:** العمران البشري، التاريخ، البدو، الحضر.

**Abstract :**

The great scholar Ibn Khaldoun's name is bound to sociology as being its founder. , He is by all means the innovative of history studies,education heritage, psychology, oloum al-hadith, al-fikh, and even kinds of sorcery, and the secrets of letters and so forth. In this paper we shall introduce this great figure, his beginnings, his intelectual life,and so the concept and domains of sociology as they appeared in his works : ' The Introduction', and his great book of history, besides his book entitled 'The Journey of Ibn Khaldoun'.

**Key Words :** Sociology, History, Nomads, Urbans.

**مقدمـــة:**

شهدت الحضارة الإسلامية، عصرها الذهبي في القرون الوسطى، فازدهرت العلوم والفنون والمعارف، وبرزت القواميس والموسوعات والمخطوطات والمؤلفات، في تلك المجالات، التي أثرت الفكر الغربي ما بعد النهضة، بل أسهمت في تقدمه وتطوره. ومثلما بزغ علماء عرب ومسلمون في المشرق العربي، فإن المغرب العربي قد زخر هو الآخر، بعدد غير بقليل من العلماء والحكماء، الذين نبغوا في حقول علمية متعددة، منها: الطب والمنطق والحساب والتاريخ والجغرافيا..، كما امتاز بعضهم بإلمامهم بصنوف عديدة من المعارف والعلوم، فعرفوا لذلك بفكرهم الموسوعي، واتساع أفقهم البحثي، وهو ما ينطبق على المفكر المغاربي العظيم **ابن خلدون**، الذي لم يشهد تاريخ الفكر الاجتماعي، في المشرق والمغرب، من يضاهيه في شهرته وصيطه، فقد كان أكثر إلماما ودقة وتفسيرا، لشؤون المجتمع وأحواله، وهو من القلائل الذين عرفوا شهرة عالمية واسعة، وترجمت أعماله خاصة **مقدمته** إلى أهم اللغات، منها: التركية، الفرنسية، الإنجليزية، البرتغالية. فلم تخلو مقررات التدريس عن ذكرها في مجالات الإثنوغرافيا والتاريخ والأنثروبولوجيا والإقتصاد وبخاصة الإجتماع. حيث يرجع كل الفضل إلى ابن خلدون، في وضع أسس العمران البشري، الذي عرف بعده ببضعة قرون، بمسمى علم الإجتماع.

وبالرغم من ذلك، فلا يزال الاعتقاد السائد بين البعض، بأن علم الاجتماع، هو علم حديث، وينسبونه إلى فلاسفة أوروبيون، مثل: **أوجست كونت A.Comte** و**سان سيمون S.Simon** وآخرون. لكن المتبع لتاريخ العلم، يدرك أنه لا يمكن بأي حال، إغفال إسهامات ابن خلدون في وضع العلم والتأسيس له والتنظير حول موضوعات، شكلت فيما بعد فروعا لعلم الإجتماع العام، مثل علم الاجتماع البدوي وعلم الاجتماع الحضري، وهو لذلك يعد الأب المؤسس لعلم الإجتماع (علم العمران البشري)، وأقدم فروعه، قبل غيره من علماء المجتمع الأوروبي. وإن كان قد سبقه فلاسفة الإغريق في تناول موضوعات المجتمع مثل **أفلاطون Platon** و**أرسطو Aristote**، إلا أن إسهاماتهم لم تكن بالواقعية ولا بالشمول، التي اتسمت بها إسهامات ابن خلدون، كونها مستقاة، من جملة الملاحظات المباشرة والمعايشة، التي قام بها من خلال أسفاره وتنقلاته والمناصب السياسية التي تبوأها، في بلدان المشرق والمغرب العربيين، ما مكنه من تجميع مادة نظرية خصبة، قلما يتوصل إلى تجميعها، غيره من علماء عصره، أو حتى من أعقبه.

وبغية التعرف على هذا المفكر الكبير، وإسهاماته في الفكر الاجتماعي، فإن منطق عرض المعلومة، يفرض البدء بالتعريف بابن خلدون وبعلمه، ثم الإحاطة بالظروف التي ظهر في ظلها علم العمران البشري، وأهم موضوعاته أو مجالاته.

## أولا: التعريف بابن خلدون (نسبه ونشأته ومشيخته)

اعتمدنا في التعريف بابن خلدون على كتابه "**رحلة ابن خلدون**"، وهو عبارة عن مذكرات شخصية كان يدونها يوميا، يعرّف من خلالها بنفسه ونسبه وتاريخ أسلافه، ويروي تفاصيلا عن حياته ورحلاته في المشرق والمغرب، كما تحوي مراسلات وقصائد نظمها. وتنتهي حوادث هذه المذكرات قبل وفاته بعام واحد سنة **807** هـ. علما أن هذا الكتاب ظل ملحقا بكتاب التاريخ الذي عرف بـ "**كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**"، ولم يظهر بشكل مستقل حتى سنة **1951**م وذلك بجهود العالم المغربي **محمد بن تاويت الطنجي** المتوفي سنة **1963**م وهو المؤلف الذي بين أيدينا.

### 1- مولده ونسبه:

هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن **بن خلدون**. وينوه ابن خلدون في مؤلفه هذا، أنه لا يذكر من نسبه إلى خلدون غير هؤلاء العشرة[1]. أما عن شهرته بابن خلدون يقول **ابن حزم:**" نسبة إلى جده خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هانئ بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر"[2]. وقد كان أهل الأندلس إذا أرادوا تعظيم العالم، يضيفون إلى اسمه واوا ونون، مثل: خالد- خلدون أو حمد- حمدون. وقد ولد العلامة ابن خلدون في أول شهر رمضان، سنة **732** هـ الموافق لـ **1332** م في إفريقية (تونس حاليا). وما زال الناس إلى هذا اليوم، يعرفون الدار التي ولد فيها، واسم الشارع بتربة الباي[3].

---

[1] عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلى حواشيها: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 2004، ص 27.

[2] المرجع السابق، ص 28.

[3] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تقديم: نواف الجراح، دار صادر - بيروت، ط2، 2009، ص 7.

نسبه **حضرموت** من عرب اليمن إلى **وائل بن حجر** بن سعيد بن مسروق بن وائل بن النعمان بن ربيعة بن الحارث بن عوف بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن شرحبيل بن الحارث بن مالك بن مرة بن حميري بن زيد بن الحضرمي بن عمرو بن عبد الله بن هانئ بن عوف بن جرشم بن عبد شمس بن زيد بن لأي بن شبت بن قدامة بن أعجب بن مالك بن قحطان وابنه علقمه بن وائل وعبد الجبار بن وائل.

و**وائل بن حجر** صحابي من صحابة **الرسول صلى الله عليه وسلم**، ويروي عنه أبو عمر بن عبد البر[4] أنه قد وفد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فبسط له النبي رداءه وأجلسه عليه، وقال:" اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة". وقد بعثه إلى اليمن معلما إياهم القرآن والإسلام، صحبة معاوية بن أبي سفيان. وأخبرنا ابن خلدون، أنه قد لقي حتفه، وهو يقاتل إلى جانب الخليفة **علي** كرّم الله وجهه.

## 2- نشأته ومشيخته:

ترعرع ابن خلدون وسط أسرة، ترجع بأصلها إلى اليمن في ***حضرموت***، وقد هاجر جده خالد (خلدون) إلى الأندلس، وتحديدا في ***قرمونة Carmona*** إبان القرن الثالث الهجري، ثم سكن وعائلته ***اشبيلية Sevilla*** أو ***Séville*** وبسقوطها، انتقل بعض أفراد عائلته إلى ***سبتة Ceuta*** وهي مدينة ساحلية في المغرب الأقصى، ثم إلى ***بونة Bona*** أو ***Boune*** وهو إسم لاتيني قديم لمدينة ***عنابة***، وهي مدينة ساحلية تقع في الشرق الجزائري، ليستقروا فيما بعد بالعاصمة التونسية ***تونس Tunis*** (إفريقية) مسقط رأس العلامة عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون.

اشتهر جدود أسرته بالعلم والسياسة، فأبوه أبو عبد الله كان من العلماء الذين عملوا بالسياسة، آثر الدرس والعلم، وكذلك عمر ابن خلدون الذي توفي قبل أبو عبد الرحمن بن خلدون بثلاثمائة عام (**449**هـ) وهو من أشراف أهل العلم في علوم الفلسفة[5]، وقد أورد ابن خلدون في كتاب رحلته وصف المؤرخ الأندلسي **ابن حيان** لأسرته، كالتالي:" وبيت بني خلدون إلى الآن في اشبيلية، نهاية في النباهة ولم تزل أعلامه، بين رياسة سلطانية ورياسة علمية"[6]. كما عرفوا أيضا

[4] انظر قصة وفادته على النبي صلى الله عليه وسلم "عام الوفود" في القسم الثاني من الجزء الثاني من تاريخ ابن خلدون، ص 56.
[5] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المرجع السابق، ص 7.
[6] عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 30.

بالجاه والثراء، حيث كانوا "يملكون أراضي خصبة، ويكسبون ثروات كبيرة أخرى، فقد كانوا يتمتعون بامتيازات اجتماعية واقتصادية عظيمة، وينعمون بالجاه والسعة، عهد الدولة الأموية، وفي الدولة الحفصية"[7] كذلك، نظير المناصب السياسية المرموقة، التي كانوا يشغلونها.

اتسمت مرحلة تعليمه الأولية في تونس، والتي دامت عشرين عاما في الفترة ما بين **732هـ – 751هـ**، بثراءها وتنوعها، في مجالات معرفية كثيرة، ترنحت بين العلوم النقلية والعقلية، حيث ذكر ابن خلدون عددا من مشايخه ضمن مؤلفه هذا، بدءا بوالده (معلمه الأول) الذي حفظ عليه القرآن الكريم، تقديرا لهم وعرفانا بفضلهم عليه، وأفرد لبعضهم ترجمة مفصلة، لأهم مراحل تكوينهم ومشيختهم، ورحلاتهم في المشرق والمغرب. وكان من أبرز أساتذته: **أبي عبد الله محمد بن سعد بن برّال الأنصاري**، وهو من أصل أندلسي، وكان إماما في القراءات، **أبو عبد الله بن العربي الحصايري**، الذي كان إماما في النحو، وكذلك **أبو العباس أحمد بن القصّار**، الذي وصفه ابن خلدون بأنه كان ممتعا في النحو، كما تعلم الأدب العربي وعلوم اللسان على يدي أستاذه **أبو عبد الله محمد بن بحر**، وأخذ ابن خلدون الفقه بتونس عن جماعة من المشايخ منهم **أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجيّاني**، و**أبو القاسم محمد القصير**. وقد حظي ابن خلدون بإعجاب كل أساتذته (مشايخه) ونال إجازاتهم. فقد برع في حفظ القرآن الكريم، وتجويد القراءات السبع، ودرس العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وأصول وتوحيد، كما درس علوم اللسان والأدب العربي والشعر والمنطق. فكان لذلك، ملما بجل العلوم والفنون والمعارف، فتميز بموسوعية قلما نجدها عند غيره.

هذا، ودرس ابن خلدون على بعض مشايخ المغرب الأقصى الذين وفدوا إلى تونس، منهم: شيخ الفتيا بالمغرب وإمام مذهب مالك، **أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي**، وكذلك كاتب السلطان **أبي الحسن** إمام المحدثين والنحاة في المغرب، والشيخ **أبو العباس أحمد الزواوي** إمام المقرئين بالمغرب. إضافة إلى شيخ العلوم العقلية **أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي**، أصله من مدينة تلمسان، وقد تأثر به ابن خلدون واستفاد منه كثيرا، فقال عنه أنه عندما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن "لزمته وأخذت عنه الأصلين والمنطق، وسائر الفنون الحكمية والتعليمية، وكان رحمه الله يشهد لي بالتبريز في ذلك"[8]. وصاحب ابن خلدون **أبو القاسم عبد الله**

[7] عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة : محمد الشريف بن دالي حسين، ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر، 1988، ص ص 9-10.
[8] عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 41.

**بن يوسف بن رضوان**، والذي قال فيه:"إن ابن رضوان هذا، من مفاخر المغرب، في براعة خطه، وكثرة علمه، وحسن سمته، وإجادته في فقه الوثائق، والبلاغة في الترسيل عن السلطان، وحوك الشعر والخطابة على المنابر، لأنه كان كثيرا ما يصلي بالسلطان، فلما قدم علينا بتونس، صحبته واغتبطت به، وإن لم اتخذه شيخا، لمقاربة السن، فقد أفدت منه، كما أفدت منهم"[9].

على العموم، يمكن القول أن ابن خلدون قد نشأ في بيئة دينية وعلمية، محفزة على الإجتهاد وطلب العلم، وأنه قد عاصر أبرز مشايخ المغرب العربي، في الأدب والفقه وعلوم اللسان.. وغيرها من المعارف، التي عرفت في عصره، حيث تتلمذ على يدي أغلبية مشايخ تونس، إضافة إلى أشهر علماء المغرب الأقصى والجزائر (تلمسان)، فكان لكل ذلك، تأثيرا عظيما في تكوينه الفكري والمعرفي، فألف عددا من الكتب، نوردها على التوالي:

- **كتاب التاريخ** المعروف بـ "**كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**". وقد ورد في سبع مجلدات، أولها **المقدمة**.
- **التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا** أو"**رحلة ابن خلدون**".
- **أخبار دولة بني الأغلب بأفريقية**
- **شفا السائل لتهذيب المسائل**

وتجمع هذه المؤلفات، بين التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والسياسة، وتندرج كلها تحت علم كبير عرّفه ابن خلدون بـ***علم العمران البشري***.

## ثانيا: منـاخ نشـأة علم العمـران البشـري

إن المناخ الاجتماعي والسياسي والتاريخي، الذي نشأ فيه ابن خلدون والذي دون تفاصيله ضمن مذكراته "***رحلة ابن خلدون***"، قد أثر على آرائه وفلسفته ونظريته الاجتماعية. فحياة ابن خلدون كانت مليئة بالنشاط السياسي والفكري، فقد شغل مناصب سياسية وإدارية هامة كالحجابة وكتابة العلامة (ديوان الرسائل) والقضاء، لدى العديد من السلاطين والأمراء، في المشرق والمغرب، ولم ينقطع في ذات الوقت، عن الدرس والبحث والتدريس والتأليف. ولا غرو في أن يتأثر ابن خلدون

[9] المرجع السابق، ص 42.

بخصائص أسرته أيضا، كونها جمعت بين العلم والسياسة، فانعكس ذلك على ميوله ورغبته في الاستزادة العلمية، وتقلد المناصب السياسة كذلك.

حيث قضى ابن خلدون معظم حياته، مسافرا ومتنقلا بين دول عديدة، خاصة بعد حادثة وفاة والديه وجميع المشيخة بالطاعون. "فقد اشتغل في كتابة العلامة عام **1352**م، لدى أبي إسحاق، وعمره لم يتجاوز عشرون عاما، وهو يدين بهذه الوظيفة إلى الحاجب المستبد في تونس ابن تافراكين، لكن ابن خلدون ضجر من هذه الوظيفة، وسافر إلى ***بسكرة*** ***Biskra*** طلبا للراحة، منتهزا الفترة التي نشبت فيها حرب بين تونس وقسنطينة، في السنة نفسها، وبعد أيام عاد إلى تونس، وتزوج من فتاة تنحدر من أسرة ثرية، عام **1354**م"[10].

غادر ابن خلدون تونس مسقط رأسه، إلى ***فاس*** في المغرب الأقصى، طلبا للعلم والاستزادة العلمية، كونه كان منطويا على مفارقة أشياخه[11]، وأصبح ابن خلدون كاتبا للسلطان أبوعنان، وشهد عدة انقلابات، وقد اشترك في إحداها، وهي محاولة الأمير الحفصي محمد بن عبد الله الفرار من فاس، بغية استرداد إمارته في بجاية، ولما علم السلطان أبوعنان أمر بسجنه مدة عامين، في الثامن عشر من صفر سنة **758**هـ[12] الموافق لسنة **1356**م. وبعد وفاة السلطان، استعاد مكانته السياسية، في عهد السلطان أبو سالم، غير أنه لم يستمر في الحكم سوى سنتين، فعمل بعدها مع الوزير عمر بن عبد الله، لكن سلوك هذا الوزير معه، جعله يقرر ترك الوظيفة، والمغادرة إلى ***الأندلس***، ويرجع سبب هذا الاختيار إلى التعارف الذي وقع بينه وبين سلطان غرناطة، وقد تعرف أيضا، على وزيره لسان الدين الخطيب. ورغم أن ابن خلدون قد استقدم أسرته للإقامة معه في غرناطة، إلا أنه غادرها إلى ***بجاية*** عام **1365**م، ووالاه السلطان أبو عبد الله أرفع مناصب الدولة وهي الحجابة (الوزارة). وبعد سنة قتل السلطان، وأثيرت الفتن والقلائل، مما دفع بابن خلدون إلى مغادرة ***بجاية*** نحو ***بسكرة*** في الفترة ما بين **1366-1372**م، رغم انه قد عرض على السلطان الجديد لبجاية أبو العباس، أن يدخل في خدمته، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل، لأن أبو العباس كان يرتاب منه، لكثرة ما حذره اصدقاؤه المقربون منه.

---

[10] عبد الغني مغربي، مرجع سابق، ص 11.
[11] عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 65.
[12] المرجع السابق، ص 73.

لقد أقام ابن خلدون في بسكرة نحو ست سنوات، و"اختلط فيها بالقبائل والعشائر، واكتسب خبرة واسعة في شؤون البدو، والسيطرة على العشائر، ومن ثم كان يمارس تأثيره السياسي من هذه الزاوية، أي من حيث قدرته على استمالة العشائر وتوجيهها"[13]. وبعد ذلك استقر به المقام في ***قلعة ابن سلامة*** "الواقعة على رأس جبل قرب تاوغزوت بضواحي فرندة (الجزائر حاليا)"[14] في الفترة ما بين **1374-1378م**، حيث تفرغ للتفكير والتأليف، فشرع في كتابة "**كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**" وهو الكتاب المعروف بالمقدمة، ويذكر ابن خلدون في مذكراته، أنه استغرق في كتابتها خمسة أشهر.

ثم عاد ابن خلدون إلى ***تونس***، بعد غربته عنها لمدة دامت ست وعشرون عاما، مكث فيها أربع سنوات، ولما بلغ الخمسون من عمره، اخذ يفكر في أداء فريضة الحج، فغادر تونس متجها إلى مصر، وأقام في عاصمتها ***القاهرة*** مدة أربع وعشرون عاما، حتى وافته المنية فيها عام **1406م**، عن سن تناهز الرابعة والسبعين. تولى خلالها مناصب التدريس والقضاء والمشيخة، ولأنه رغب الاستقرار في القاهرة، بعث لاستقدام أسرته معه، لكن وقع الحادث المؤلم، عندما غرقت السفينة، التي كانت تقل زوجته وأولاده، في رحلتهم من تونس إلى مصر، وكان هذا من أكثر الحوادث المحزنة، التي تعرض لها ابن خلدون، بعد وفاة والديه وجل مشيخته بالطاعون الجارف.

وقد غادر مصر في سفرات قصيرة، عدة مرات إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ثم القدس لزيارة المقامات المباركة، ودمشق للاشتراك في الدفاع عن المدينة، عندما أخذ تيمورلنك يغزو الشام، وكان ابن خلدون من بين الذين حوصروا من طرفه، وقد حظي بإعجابه، فاستخدمه لديه، لكن ابن خلدون عاد إلى القاهرة، بحجة إحضار كتبه منها، وبقي فيها إلى وفاته بها.

خلاصة القول، أن الفترة التاريخية التي عاش فيها ابن خلدون، وهي النصف الثاني من القرن **14م**، قد اتسمت بالاضطرابات والتقلبات والانقلابات السياسية، التي شهدتها دول المغرب العربي، وكذلك المشرق العربي، فقد شهد ضعف وانهيار العديد من الدول، في الوقت الذي بدا فيه نهوض وتقدم دول العالم الغربي، مما دفع به إلى التساؤل والبحث، حول العوامل التي أدت إلى نشأة الدول وتدهور حالها وانهيارها. والجدير بالذكر، أن ابن خلدون لم يكن من أصحاب

[13] محمد علي محمد، تاريخ الفكر الاجتماعي (الرواد والاتجاهات المعاصرة)، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية، 2008، ص 51.
[14] عبد الغني مغربي، مرجع سابق، ص 16.

النظريات العاملية، التي تركز على عامل محدد، و تعزي إليه كل التحولات، بل اخذ بعين الاعتبار، كل العوامل التي تفضي إلى تطور وتبدل الأوضاع الاجتماعية والسياسية، من حسن إلى سيء، و لذلك جاء تفسيره شاملا، مستشفا من واقع الحياة الاجتماعية والسياسية، التي عاشها وتعامل معها في تلك الفترة، فتناول كل جوانب المجتمع الاقتصادية، الجغرافية، القانونية، الدينية، التي لها تأثير على هذا التغير.

## ثالثا: علم العمران البشري مفهومه وأقسامه ومنهجه

إن تقلد ابن خلدون للعديد من المناصب السياسية، من خلال أسفاره وتنقلاته، في دول المغرب والمشرق العربيين، واحتكاكه المباشر بالقبائل البدوية فيها، وبخاصة في المغرب الأوسط، قد أكسبته مادة نظرية خام وثرية، حول طبيعة المجتمعات واختلاف أحوالها، وأن معايشته للاضطرابات والقلائل السياسية، قد حركت فضوله، لبحث عوامل تدهور الدول وانهيارها. ومن ثم، أخذ ابن خلدون يفكر في نشأة الدول ومراحل تطورها وانحطاطها وزوالها، من خلال ملاحظاته ومقارنته لطبيعة التجمعات البشرية، التي قسمها إلى بدو وحضر، وحدد بحكم مخالطته واحتكاكه بكليهما، خصائص الحياة الاجتماعية والاقتصادية لكل منهما، وعلاقتها بالبيئة الجغرافية التي تتواجد فيها. وهكذا، بدأت تتكون وتتبلور ملامح علم جديد، لم يدركه أحد من العلماء من قبله، اصطلح عليه ابن خلدون "**علم العمران البشري**".

### 1- تعريف علم العمران البشري وأقسامه (مجالاته):

يمثل علم العمران البشري، علما مستقلا ومستحدثا، يختلف عن سائر العلوم والفنون، التي عرفت في عصر ابن خلدون، والتي قد تبدو متداخلة معه أو مختلطة بميدانه، فهو يختص بموضوع الاجتماع الإنساني، وله لذلك مجالاته، مفاهيمه، مناهجه وأطره التفسيرية. وهو ما بينه ابن خلدون في مقدمته.

يمهد ابن خلدون عرضه لعلم العمران البشري، من خلال حقيقتين اجتماعيتين، تتمثل الأولى في ***التعاون*** وهو ضرورة الاجتماع الإنساني، كون الإنسان ضعيف، وليس بمقدوره العيش منعزلا، فهو في حاجة دائمة إلى الآخرين من بني جنسه، لإشباع حاجاته. فلابد إذن، من تعاون أفراد العشيرة، على إنتاج مقومات حياتهم. حيث يعرف ابن خلدون العمران بأنه:" التساكن والتنازل

في مصر أو حلة للأنس بالعشير، واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش"[15]. ومثلما يحتاج الإنسان إلى غيره في إشباع حاجاته، فإنه يحتاج أيضا الدفاع عن نفسه من غيره، وهنا يشير ابن خلدون، إلى الحقيقة الاجتماعية الثانية، والمتمثلة في ***العدوان***، والذي يعد –حسبه– فطريا بين سائر الحيوانات، لذلك خلق الله لكل منها، عضوا لتدافع به عن نفسها، وكذلك خلق الله للإنسان يدا وفكرا "فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر، والصنائع تحصل له الآلات، التي تنوب له عن الجوارح، المعدة في سائر الحيوانات للدفاع"[16].

ويذهب ابن خلدون أن هاتين الحقيقتين الاجتماعيتين ***التعاون*** و***العدوان*** أو ***الصراع Conflit***، هما عمليتين ضروريتين للاجتماع الإنساني، فهما اللتين تحفظان بقاء الإنسان ونوعه "وهذا هو معنى العمران"[17] الذي جعله موضوعا لهذا العلم. غير أن هذا الاجتماع هو في حاجة إلى **وازع** يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباع البشر من عدوان وظلم، لأن الأسلحة ليست بالكافية، في دفع العدوان عنهم، لأنه فطري فيهم، لذلك فإن هذا الوازع، لا يكون في غيرهم من الحيوانات، لقصور مداركهم وقدرتهم عن رده، وبذلك يكون هذا الوازع من البشر أنفسهم، حيث يكون لأحدهم الغلبة والسلطان على غيره من أفراد قبيلته أو جماعته، حتى لا يقع العدوان بينهم "وهذا هو معنى الملك"[18]. ويضيف ابن خلدون إن بين كل الكائنات الحية، ثمة من يترأسهم، كما في النحل والجراد. ومن ثم، فإنه لابد للبشر من الحكم الوازع أو قيادة سياسية.

غير أن الحياة الاجتماعية، لا تستقر بالسياسة فحسب، بل يضيف إلى هذا العامل، عاملين آخرين، هما البيئة الجغرافية والاقتصاد أو ما عبر عنه بالصنائع. وتمثل هذه العوامل معا، مرتكزات نظرية العمران البشري. حيث ربط بين طباع البشر ومزاجهم، ونوع البيئة التي يعيشون فيها، ووصفهم بأنهم"أعدل أجساما، وألوانا، وأخلاقا، وأديانا، حتى النبوءات، فإنما توجد في الأكثر فيها... ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم"[19]. كما بين أن تركز العمران، يكون في المعتدل من الأقاليم "قد بينا أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض، إنما هو وسطه، لإفراط الحر في الجنوب منه، والبرد في الشمال"[20].

---

[15] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص 38.
[16] المرجع السابق، ص 39.
[17] المرجع السابق، ص 39.
[18] المرجع السابق، ص 40.
[19] المرجع السابق، ص ص 68-69.
[20] المرجع السابق، ص 69.

وحول اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض، فإن ابن خلدون يربطها بطبيعة العمران، وما يستدعي من ذلك لضرورة التعاون والمعاش، وأن ظهور الصنائع، مرتبط بدرجة التطور الحضاري، الذي تبلغه هذه الأمصار، فإذا كانت كل الأمصار تتوفر على صنائع كالحدادة والخياطة والنجارة، "فإنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة، الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجّاج، الصائغ، الدهّان، الطبّاخ، الصفّار، الفرّاش والذبّاح، وأمثال هذه، وهي متفاوتة"[21]. وبقدر تحضر العمران وما يستدعيه من ترف، تبرز صنائع لذلك النوع، ويضرب ابن خلدون في هذا السياق مثالا عن الحمامات، التي توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة في العمران. هذا، ويفصل ابن خلدون في أن الفلاحة والصناعة والتجارة هي وجوه طبيعية للمعاش، وهو يرتبها تاريخيا بحسب ظهورها واستخدامها، فـ***الفلاحة*** هي أقدم أصناف المعاش، التي عرفها الإنسان "إذ هي بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج إلى نظر ولا علم"[22]. وهي من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو. أما ***الصناعة*** فهي تعقبها تاريخيا، وهي أكثر تقدما منها لأنها "مركبة وعلمية، تصرف فيها الأفكار والأنظار، ولهذا لا توجد غالبا، إلا في أهل الحضر الذي هو متأخر عن البدو، وثان عنه"[23]. فيما يعتبر ابن خلدون ***التجارة*** طبيعية في الكسب، تقوم على معاملات البيع والشراء بين البشر، وإن كان –حسبه– يشوبها التحايل في الحصول على الربح. غير أن ***الإمارة*** لا تعد بالنسبة لابن خلدون مذهبا طبيعيا للمعاش، لأنها ترتبط بأحوال الجبايات السلطانية وأهلها.

وعليه، فإن حقائق العمران، مرتبطة بالملكات التي اختص الله بها الإنسان، دون سائر الحيوانات، ولعل أهمها السعي في المعاش، والحاجة إلى الحاكم والسلطان القاهر. ومن خلال مقدمته، يبرز ابن خلدون مجالات الدراسة في علم العمران البشري، على النحو التالي:

- قواعد المنهج والبحث في علم العمران البشري، والذي استهلها بالمنهج التاريخي، وأهميته العظيمة في عرض أخبار الدول وأحوالهم.
- خصائص البيئة الجغرافية في الأقاليم السبعة، وأثرها على التجمعات البشرية، من حيث التوزع الديموغرافي، والمزاج، والمعاش، وطرق التكيف البشري وهذه الأقاليم.

---

[21] المرجع السابق، ص 281.
[22] المرجع السابق، ص 286.
[23] المرجع السابق.

- خصائص العمران البدوي أو الجماعات البسيطة، التي تكون عادة سابقة على كل أنواع العمران الأخرى، أو بالأحرى الشكل البدائي الأول للعمران.
- الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية، ويعد بحثا في الاجتماع السياسي، ويشتمل على نشأة الدولة والملك، وأهمية العصبية في تقوية كليهما، علما أن العصبية مفهوم مركزي في الفكر الخلدوني، وهو على أنواع: عصبية القرابة أو الدم، عصبية المصاهرة، عصبية الولاء، عصبية الجوار، عصبية الاصطناع كما هو حال الجند.
- العمران الحضري ويتناول البحث في المدن والأمصار وسائر العمران، بخلاف البدو.
- الصنائع والكسب والمعاش ووجوهه، وهو ما يصطلح عليه الأوروبيون علم الاجتماع الاقتصادي، وهو يعنى بعرض أشكال الصنائع والحرف والنشاطات الفلاحية والتجارية التي يمارسها كل من البدو والحضر.
- أصناف العلوم وتعلمها وطرق اكتسابها، ويظهر أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري، ويرادف هذا القسم تخصص علم اجتماع المعرفة في الاجتماع الأوروبي.

## 2- منهجية البحث في علم العمران البشري:

يبرز ابن خلدون من خلال مقدمته، أن علم العمران البشري، هو في الأساس تاريخ للاجتماع الإنساني، أو هو نظرية اجتماعية متكاملة في التأريخ الإنساني، إذ يمثل "**كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**" والمعروف بالمقدمة، كتابا ضخما في التاريخ الاجتماعي، حيث يفسر ويفصل في ضوءه، طبائع البشر واختلاف أحوالهم ومعاشهم، فقد استهل مقدمته، بعد حمد الله تعالى وشكره، والصلاة والسلام على نبيه الأمين المصطفى، بذكر فضل التاريخ، الذي تناوله من حيث كونه فنا، ومن حيث كونه علما.

فالتاريخ باعتباره فنا، هو من الفنون المتعارف عليها، والمتداولة بين الأمم والأجيال، وترنو إلى معرفته كل صنوف البشر، سواء أكانوا من الملوك والأقيال[24] أو العلماء والجهلة "إذ هو في ظاهره لا يزيد عن على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمى فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال،

[24] جمع قيل، والقيل: الملك من ملوك حمير، والجمع الأقيال والأقوال والمقايل: الرؤساء.

وحان منهم الزوال"[25]. معنى هذا، أن التاريخ هو فن عرض أخبار السوابق من العمران، وهو لذلك يتيح تتبع مراحل التطور البشري، من الأشكال الأولية البسيطة إلى تلك المعقدة. أما من حيث كونه علما فإن ابن خلدون يقول:"وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق"[26]. فالتاريخ كعلم، لا يكتف بسرد الوقائع والحوادث الماضية فحسب، وإنما يتطلب، التحقيق والتدقيق والتمحيص والتثبت، حول هذه الأخبار المنقولة، وأنه في جوهره علم دقيق، يدرس العوامل والأسباب، المفضية إلى حدوث الوقائع والظواهر، وهذا هو المنهج التاريخي، بمفهومه العلمي الحديث.

وفي هذا السياق يخبرنا ابن خلدون، أن أعظم مؤرخي الإسلام، قد استوعبوا أخبار من قبلهم من الأمم، وجمعوها في مؤلفات، لكن بعض المتطفلين، قد أضافوا عليها وحرفوها، وشوهوا محتوياتها وتفاصيلها وفحواها، والمؤسف أن الكثير من العلماء من بعدهم، قد نقلوا عنهم ما ابتدعوه، واتبعوهم دون أن يهتموا بالتحقق أو التثبت أو البحث حول صحة هذه الأخبار، وأسباب الوقائع المنقولة عنهم. وهو ينتقدهم بقوله "وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل، من المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر، إذا عرضت في الحكايات، إذ هي مظنة الكذب، ومطية الهذر"[27].

ولذلك، يقول ابن خلدون في فضل التاريخ "اعلم أن فن التأريخ، فن عزيز المذهب، جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك، لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها

[25] المرجع السابق، ص 11.
[26] المرجع السابق.
[27] المرجع السابق، ص 15.

بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق"[28].

وقد صاغ ابن خلدون تباعا، قواعد المنهج التاريخي، نلخصها في النقاط الرئيسية التالية:

- العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والأمكنة والأزمنة، من حيث الأخلاق والعادات الجمعية والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، ومن ثم، لابد من توخي الحذر في التعميم.
- الإحاطة بالحاضر وقياسه ومقارنته بالماضي، بحيث تستشف وجوه التماثل والتباين أو الفرق، وتعليل المتفق منها والمختلف.
- الإلمام بأصول الدول والملل، ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها، ودواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون الباحث مستوعبا لأسباب كل حادث.
- أن يقارن الباحث المنقول من الأخبار، بما لديه من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا، وإن ثبت العكس، فهي مزيفة، ويمكنه الاستغناء عنها.
- إدراك حقيقة التبدل والتغير الاجتماعي، التي تعتري أحوال العمران البشري، عبر سيرورته التاريخية، ذلك أن عوائد الأمم ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر.

ولذلك، فإن ابن خلدون لم يعتمد على نقل أخبار من قبله، من المؤرخين والرواة، دون التشكيك فيها والتحقق من صحتها ومصداقيتها، إذ يقول:"ولما طالعت كتب القوم، وسبرت غور الأمس واليوم، نبهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم، وسمت التصنيف من نفسي وأنا المفلس أحسن السوم، فأنشئت في التاريخ كتابا، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا، وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا، وبنيته على أخبار الأمم الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار، وملؤوا أكناف النواحي منه والأمصار"[29].

هذا، ومما أثرى المنهج التاريخي، في مؤلفات ابن خلدون، تلك الملاحظة المباشرة والمعايشة، للعديد من الوقائع والحوادث، والتي جعلت ابن خلدون مدركا لها، دونما الرجوع إلى الأخبار المنقولة، عن من سبقه من المؤرخين، فقد سمحت هذه الملاحظات، بتجميع معلومات

[28] المرجع السابق.
[29] المرجع السابق، ص ص 12-13.

ميدانية وواقعية، بعيدة عن كل وجوه الزيف والمغالطة، حيث مكنت ابن خلدون من تطبيق طرق القياس والمقارنة، بين ما سمعه ونقل إليه، وما هو معيش وموجود بالفعل، وكشف بفضلها عن العديد من الحقائق والأسباب، التي غابت عن الكثيرين من قبله. ويبدو أن ابن خلدون، لم يأت على ذكر الملاحظة وأهميتها، بشكل منفرد، على غرار المنهج التاريخي، كونها بالنسبة إليه، متضمنة في ذلك المنهج، ومكملة له، فإذا كان ماضي الأمم والدول يدرك عن طريق التاريخ، فإن الحاضر يدرك عن طريق الملاحظة والمعايشة، وبالتالي لا يمكن الاستغناء عنها، بأي حال من الأحوال.

لقد استخدم ابن خلدون المنهج التاريخي، في بحث تاريخ مجتمعات المغرب وأسلافهم، من عرب وبربر، وهما الجيلان الذي عرفا وتعايشا في المغرب في تلك الأعصار، وحول منهجية البحث في مؤلفه يقول:"فهذبت مناحيه تهذيبا، وقربته لأفهام العلماء والخاصة تقريبا، وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا، واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني، من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها، حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك"[30]. وقد وضع مؤلفه ورتبه على مقدمة وثلاثة كتب:

- **المقدمة:** عرض فيها فضل علم التاريخ وقواعد منهجه والتنبيه إلى مغالط المؤرخين من قبله.
- **الكتاب الأول:** عرض فيه طبيعة العمران البشري، وما يختص به من ملك وسلطان، وأصناف الكسب والمعاش والصنائع والعلوم، وما لذلك من العلل والأسباب.
- **الكتاب الثاني:** يدور موضوعه حول العرب وأجيالهم ودولهم، وذلك منذ بدء الخليقة، إلى العهد الذي عاش فيه ابن خلدون، كما ألمع عن بعض من عاصرهم من الأمم والمشاهير ودولهم، مثل النبط، السريانيين، الفرس، بني إسرائيل، الأقباط، اليونان، الرومان، الأتراك والإفرنجة.
- **الكتاب الثالث:** وقد خصصه لقبائل البربر، وأوليتهم في الشمال الإفريقي، وأجيالهم وما كان بديار المغرب خاصة من الملك والدول، وأخبار ملوك العجم، الذين سافر إلى دولهم

في رحلته إلى المشرق، موضحا استخدامه لأسلوب الاختصار والتلخيص في عرضه لهم، باحثا عن أسباب الحوادث في هذه الدول.

## 3- نظريـات علم العمـران البشـري:

عرض ابن خلدون في مقدمة كتابه "**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**"، نظرياته في العمران البشري، والتي شملت:

- التطور الاجتماعي
- أثر المناخ والبيئة الجغرافية على الحياة الاجتماعية
- أنماط الحياة البدوية والحضرية
- الاجتماع السياسي
- الاجتماع الاقتصادي

وفيما يلي، سوف نستعرض كل منها بالشرح والتفسير، معتمدين في ذلك، على كتابه الكبير في التاريخ.

## 1- التطور الاجتماعي:

ارتبطت نظرية ***التطور Evolution*** باسم عالم الأحياء ***داروين Darwin***، الذي صاغها وأحلها محل الإقتناع القديم بثبات الأنواع، الذي دعمته العقيدة الدينية عن خلق الكون، وقد وضع فروضه العلمية عن التطور في كتابه ***أصل الأنواع Origins of species*** عام **1859**م، وهو يرى بأن "الأشكال المختلفة للحياة لها أصل مشترك، تطورت عنه تدريجيا، وأن الذي يصمد في الصراع من أجل الحياة، هو الكائنات التي تكون أكثر تكيفا مع ظروف الحصول على الغذاء، وتجنب هجمات المتنافسين"[31].

وبناءا على ما سبق ذكره، فإن مصطلح التطور يدل على "الحركة الطبيعية التي تنتج تغيرا أو تؤدي إلى نوع جديد، وبمعنى أدق يدل على عملية التغير المتصلة التي يخرج من خلالها

[31] إبراهيم مدكور وآخرون، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص 151.

شيء جديد، دون أي مساس بهوية الوحدة الأصلية وفرديتها، وفي معناه الضيق يدل على التطور العضوي، وهو تفاعل الكائن الحي مع بيئته الطبيعية"[32].

غير أن ابن خلدون قد أشار إلى فكرة التطور قبله ببضعة قرون، حيث ماثل بين حياة الكائن العضوي، وحياة المجتمع البشري، وجعل للدول دورة للحياة، تأخذ شكل مراحل انتقالية تطورية حتمية، عبر التاريخ، تبدأ من مرحلة النشأة ثم النمو والازدهار فالأفول والزوال، ولذلك "تنتمي نظريته في هذا المجال، إلى نظريات فلسفة التاريخ أو الحضارة"[33]. حيث يقرر ابن خلدون في تناوله لعلم التاريخ حقيقة اجتماعية هامة، مؤداها "أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول"[34]. معنى هذا، أن التطور والتبدل، وعدم الثبوت والاستقرار، حالات طبيعية، وهي مثلما تعتري العالم الطبيعي، فإنها تعتري العالم الاجتماعي أيضا. لكن ابن خلدون لا يترك هذا التطور للعشوائية أو العرضية، بل يربطه بعامل يعد حسبه أساسيا، والمتمثل في العامل السياسي، فيقول:"والسبب الشائع في تبدل أحوال الأحوال والعوائد، أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه، كما يقال في الأمثال الحكمية: الناس على دين الملك"[35]. ويفسر ذلك، بأن لكل دولة سياستها، التي تشتمل على عادات وأعراف وأحكام، أو لنقل تشريعات يقتضيها الحكم والسلطان، تحدد أنماط السلوك والممارسات الاجتماعية، وبحلول دولة جديدة أو حاكم جديد، تشرع سياسة جديدة، فقد تبيح وتسمح ببعض العوائد وتمنع بعضها الآخر، غير أن العوائد القديمة لا تندثر تماما، وإنما تمتزج بالعوائد الجديدة. وهكذا، ينشأ الإختلاف الحضاري بين الأجيال، بشكل تدريجي، حتى يصل في النهاية إلى ما أطلق عليه ابن خلدون "التباين بالجملة".

هذا، ويحدد ابن خلدون خمسة أطوار تمر خلالها الدولة، في سلسلة متتابعة المراحل، تشبه تماما تطور الكائن الحي، وهو يقول في هذا الصدد:"اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور، لا يكون مثله في

---

[32] المرجع السابق.
[33] محمد علي محمد، مرجع سابق، ص 61.
[34] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص 29.
[35] المرجع السابق.

الطور الآخر، لأن الخلق تابع بالطبع، لمزاج الحال الذي هو فيه"[36]. وحالات الدولة وأطوارها لاتعدو في الغالب خمسة أطوار: [37]

**الطور الأول:** يتمثل في الصراع الاجتماعي لانتزاع الملك، والإستيلاء عليه، من الدولة السابقة، فيكون صاحب الدولة، قدوة قومه في اكتساب المجد والقوة، التي دعمتها ***العصبية*** أو الشعور بالتماسك والوعي بالمجتمعية، التي وقعت بها الغلبة (سوف نتوسع في شرحها في موضعها).

**الطور الثاني:** طور استبداد صاحب الدولة على قومه، والانفراد دونهم في الملك، كما يقوم باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع، من دون أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في النسب.

**الطور الثالث:** طور تحصيل ثمرات الملك، حيث ينزع صاحب الدولة إلى تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت، ويهرع إلى توسعة الجباية وضبط الدخل والخرج، وإحصاء النفقات، وتشييد المباني والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة، والهياكل المرتفعة.. مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه. ويعد هذا الطور بالنسبة لابن خلدون، آخر أطوار الاستبداد من أصحاب الدول، لأنهم في هذه الأطوار كلها، مستقلون بآرائهم، بانون لعزهم، موضحون الطرق لمن بعدهم.

**الطور الرابع:** طور القنوع والمسالمة، حيث يكون صاحب الدولة قانعا بما بنى السابقون عليه، مقلدا للماضين من سلفه، ويقتفي طرقهم بأحسن مناهج الإقتداء، ويرى في مخالفتهم والخروج عن تقليدهم فساد أمره.

**الطور الخامس:** طور الإسراف والتبذير، فيكون صاحب الدولة متلفا لما جمعه أولوه في سبيل الشهوات والملذات والكرم على بطانته، وفي مجالسه، مخربا وهادما لما بناه سلفه، فتضعف بذلك عصبية قومه ومناصروه، وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها الضعف والمرض المزمن الذي يستعصي علاجه والشفاء منه، وبذلك تتقرض وتزول.

---

[36] المرجع السابق، ص 133.
[37] المرجع السابق.

فالدولة والحال هذه، كالكائن البشري، الذي يولد ويبدأ حياته ضعيفا، ثم يشتد عوده بمن حوله (جماعته الأولية/ عصبيته) وما يفتأ يزداد قوة وصلابة، لكنه يمرض، فيصيبه الوهن والضعف، ويموت ويفنى أخيرا، أو بالأحرى له خصائص الكائن الحي، الذي يحيا ويموت. ولذلك يصنف العديد من العلماء ابن خلدون من أصحاب نظريات التطور الاجتماعي، الذين يضعون مراحلا حتمية لانتقال المجتمعات البشرية، من حالة بسيطة إلى أخرى معقدة، غير أن ابن خلدون، قد جعل هذه الحتمية لصيقة بالإنسان، وأنه من يرسم هذه المراحل بطباعه وفطرته.

ولقد ذهب ابن خلدون في نظريته إلى أبعد من ذلك، حيث حدد أعمارا للدولة، فقد يصل عمر الدولة إلى مائة وعشرين عاما، أو قد يكون دون ذلك، مسترشدا بأعمار الأفراد العاديين في هذا الحساب. كما قسم ابن خلدون عمر الدولة إلى ثلاثة أجيال متعاقبة، نوردها على التوالي:

**الجيل الأول:** يمثله البدو وما يتصفون به من خشونة وتوحش وبسالة وافتراس.

**الجيل الثاني:** هو جيل التحول بالملك، والترفه من البداوة إلى الحضارة، ومن التقشف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى الانفراد به، فتضعف بذلك العصبية شيئا فشيئا.

**الجيل الثالث:** يمثل الإغراق في التبذير والترف، وضعف الدولة بضعف عصبيتها وانكسارها، وبالتالي زوالها وفناؤها.

## 2- أثر المناخ والبيئة الجغرافية على الحياة الاجتماعية:

خصص ابن خلدون المقدمة الثانية من كتابه في التاريخ، حول قسط العمران من الأرض، وما تحتوي عليه البيئة الطبيعية أو الأقاليم، من أشجار وأنهار..، وأثرها على أمزجة وطباع ومعاش الجماعات الاجتماعية. حيث ميّز ابن خلدون بين سبعة أقاليم مختلفة، معتمدا على تقسيم الجغرافيين القدامى للأرض، وأن كل إقليم ينقسم إلى عشرة أجزاء. ثم يلاحظ ابن خلدون أن المناخ يلعب دورا في ألوان البشر وأخلاقهم وطباعهم، وأنه مرتبط كذلك بحالة العمران البشري.

فقد لاحظ ابن خلدون، أن الأقاليم السبعة، مختلفة عن بعضها البعض، من حيث الحرارة والبرودة والاعتدال، فالإقليم الأول والثاني يتميزان بالحرارة الشديدة والمفرطة، فيما تشتد البرودة في الإقليمين السادس والسابع، أما الإقليم الرابع فهو أعدل هذه الأقاليم، كونه يتوسطها، وهي أيضا خاصية الإقليمين الثالث والخامس، لأنهما يجاورانه. ويرى ابن خلدون أن الأقاليم المعتدلة من حيث

الحرارة والبرودة، تساعد على وفرة العمران، عكس الأقاليم التي تشتد فيها الحرارة أو البرودة، فإنها لا تساعد على ذلك، "فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه، بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة، مخصوصة بالاعتدال"[38].

هذا، ويربط ابن خلدون بين خصائص الأقاليم، وطباع وأحوال سكانها، فعن الأقاليم المعتدلة يقول:"وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم، فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم، يتخذون البيوت المنجدة المنمقة بالصناعة، ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين، ويذهبون في ذلك إلى الغاية، وتوجد لديهم المعادن الطبيعية، من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير، ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين، ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم"[39]. وهؤلاء هم أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراق والهند والسند والصين وكذلك الأندلس، ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين. فالأقاليم المعتدلة والحال هذه، تساعد على قيام وازدهار الحضارات، على اعتبار أن هذه الدول، قد عرفت أكبر الحضارات الإنسانية عبر التاريخ، مثل الحضارة الرومانية والحضارة الصينية وحضارة بلاد الرافدين.

وفيما يخص الأقاليم البعيدة عن الاعتدال، يقول ابن خلدون في وصف أهلها بأنهم "أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم، فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر، يخصفونها عليهم، أو الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس، وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين، مائلة إلى الانحراف، ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين، من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات"[40]. أما عن أخلاقهم فإنها قريبة إلى الحيوانية، لتوحشهم وبعدهم عن الحضارة، حتى أن ابن خلدون يصف الكثير من السودان[41] من سكان الإقليم الأول بأنهم "يسكنون الكهوف والغياض، ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين، يأكل بعضهم بعضا، وكذا الصقالبة، والسبب في ذلك، أنهم لبعدهم عن الاعتدال، يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم، من عرض الحيوانات العجم، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا، فلا يعرفون نبوة، ولا يدينون بشريعة، إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وهو في الأقل النادر"[42]. فبقدر

---

[38] المرجع السابق، ص 68.
[39] المرجع السابق، ص 69.
[40] المرجع السابق، ص 69.
[41] السودان هم أولئك الذين تكون بشرتهم سوداء اللون.
[42] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص 69.

اعتدال الأقاليم، يعتدل البشر في طباعهم وأمزجتهم ومعاشهم، كما يهيئ الإقليم المعتدل، لازدهار الحضارة والعلوم والصنائع، وبانحراف الإقليم، تنحرف الأخلاق والطباع، وتغيب مظاهر الخصب والترف والإنسانية.

ثم ينتقل ابن خلدون إلى تناول اثر الهواء في أخلاق البشر، فيتعرض إلى أخلاق أهل السودان، ويوضح كيف تؤثر الحرارة في أمزجتهم، وأصل تكوينهم، وأن الحرارة "مفشية للهواء والبخار، مخلخلة له، زائدة في كميته، ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه"[43]. ولذلك يتسم أهل السودان على العموم، بالخفة والطيش وكثرة الطرب والرقص، وأكثر من ذلك، فإنهم موصوفين بالحمق أيضا، ولا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم. ومقابل ذلك، يضرب ابن خلدون مثالا عن سكان الأقاليم المعتدلة، فيخبرنا عن سكان فاس بالمغرب الأقصى "ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في نظر العواقب، حتى أن الرجل منهم، ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة، ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه، مخافة أن يرزأ شيئا من مدخره"[44]. إن هذه النظرية، التي صاغها ابن خلدون، من واقع معايشته وملاحظاته، حول أثر الأقاليم المعتدلة وكذلك المنحرفة على سكانها، قد عبر عنها من بعده، العديد من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الأوربيون، حيث وصفوا الأقاليم الجنوبية بالمتخلفة، والشمالية بالمتقدمة.

فيما خصص ابن خلدون المقدمة الخامسة، في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم، وهو يبين من خلالها، أن الأقاليم متباينة من حيث خصوبتها، وبذلك لا تتساوى الأقوام، ولا تتماثل في معيشتهم، حتى بين الأقاليم المعتدلة إذ يقول: "اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة، ليس كلها يوجد بها الخصب، ولا كل سكانها في رغد من العيش، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت، واعتدال الطينة ووفور العمران"[45]. فخصائص الإقليم الطبيعية، هي التي تحدد رغد العيش لسكانها، بما توفره لإشباع حاجاتهم الضرورية، فيما توجد أقاليم قاحلة، لا تنبت زرعا ولا عشبا، فسكانها في شظف من العيش، ولأن ابن خلدون عاش متنقلا بين الأقاليم، فهو يذكر أمثلة عنهم كأهل الحجاز وجنوب اليمن، والملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال

[43] المرجع السابق، ص 71.
[44] المرجع السابق، ص 72.
[45] المرجع السابق، ص 72.

فيما بين البربر والسودان، ولان أقطارهم لا تتوفر على الحبوب، فإنهم يعوضونها بما يملكون من الماشية، فيكون غذاؤهم وأقواتهم من الألبان واللحوم. ويكشف ابن خلدون، عن العلاقة بين نوعية الغذاء والصحة، فالفاقدين للحبوب والأدم، هم في حالة صحية جسمية ونفسية وعقلية، أحسن من أولئك الذين يقتاتون على اللحم، وهذا انطلاقا من تجربته ومخالطته لهم.

وأكثر من ذلك، يربط ابن خلدون بين خصوبة الأقاليم والتدين، فيقول:"واعلم أن هذا الخصب في البدن وأحواله، يظهر حتى في حال التدين والعبادة، فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة، ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ، أحسن دينا وإقبالا على العبادة، من أهل الترف من الخصب... ويختص وجود العبّاد والزهّاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي"[46]. ويقرر لذلك ابن خلدون أن "الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه، أو على الإقلال منها، وأن له أثرا في الأجسام والعقول، في صفائها وصلاحها"[47]. إن ابن خلدون قد أسس نظرية في البيئة والمجتمع او كما يصطلح على تسميتها بالإيكولوجيا الاجتماعية أو ***علم اجتماع البيئة*** ***Environment Sociology***، ينتقل بفكره من علاقة الإنسان ببيئته في معاشه أو اقتصاده، إلى تدينه أو ممارسته الدينية إلى صحته وعلاقتها بنوع غذائه وهو ما يعرف بعلم اجتماع الصحة في أيامنا هذه، ويظهر بذلك أن طبيعة العمران البشري، وكل أحواله هي مرتبطة بطبيعة الإقليم من حيث الخصب أو الجدب.

## 3- أنماط الحياة البدوية والحضرية:

يفرق ابن خلدون بين نمطين من الحياة الاجتماعية، هما ***البداوة*** و***الحضر***، على أن البدو (أهل البادية) يمثلون مرحلة العمران الأولى أو الشكل البدائي للعمران، السابق على الحضر، وهم يختلفون عنهم، من حيث طبيعة اقتصادهم أو "نحلتهم المعايشة" بحسب تعبير ابن خلدون، والذي يصنف نشاطهم الاقتصادي إلى نوعين "فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود، لنتاجها واستخراج فضلاتها"[48]. وأن اجتماع البدو وتعاونهم في المعاش والقوت، إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة، ولا يزيد عن حاجتهم، لعجزهم عن تحصيله.

---

[46] المرجع السابق، ص 73.
[47] المرجع السابق، ص ص 74-75.
[48] المرجع السابق، ص 96.

ثم، يعرض ابن خلدون كيف يتطور نمط الحياة البدوية إلى الحضرية، والذي ربطه بزيادة الإنتاج الاقتصادي، المفضي إلى الرفاهية والازدهار، وبالتالي تغير نمط حياة البدو إلى حضر، إذ يقول:"إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها، وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر"[49].

فالحضر إذن، على عكس البدو، يعيشون في ترف ورفه، كونهم يحصلون ما يزيد عن حاجتهم، فهم ينتقون الملابس الفاخرة، من أنواع الحرير والديباج، ويتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه، ويعالون صرحها، ولأنهم يمثلون مرحلة متطورة ولاحقة عن البداوة، فإنهم لا يشتغلون في الفلاحة أو الرعي، وإنما ينتحلون في معاشهم الصنائع والتجارة، التي تنمي مكاسبهم، وتزيد من رفاهيتهم. وعليه، يتميز الحضر بالاستقرار والازدهار في معاشهم، خلافا للبدو الذين يقتصرون على الضروري في أحوالهم، والعاجزون عن ما فوقه، وأن القائمون منهم على الإبل، لا يعرفون استقرارا، خاصة فصل الشتاء "لأن مسارح التلول ونباتها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها، عن مراعي الشجر بالقفر...إذ الإبل أصعب الحيوان فصالا ومخاضا، وأحوجها في ذلك إلى الدفء، فاضطروا إلى إبعاد النجعة"[50].

وبذلك، يقرر ابن خلدون، أن البدو أقدم من الحضر، وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران، وأن الأمصار ما هي إلا امتداد لها، أو أشكال متطورة عنها، قياسا على أن الضروري هو الأصل، والكمالي فرع ناشئ عنه، ولذلك "فالبدو أصل للمدن والحضر، وسابق عليهما، لأن أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف، إلا إذا كان الضروري حاصلا، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة"[51].

هذا، ويرتب ابن خلدون البدو أنفسهم، بحسب طبيعة معاشهم وظعنهم، إلى مراتب ثلاثة:

- **المرتبة الأولى:** من كان معاشه منهم في الزراعة وأعمال الفلاحة، وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال، وهم عامة **البربر والأعاجم**.

---

[49] المرجع السابق، ص 96.
[50] المرجع السابق، ص 97.
[51] المرجع السابق.

- **المرتبة الثانية:** من كان معاشه منهم في السائمة، مثل الغنم والبقر، فهم ظعّن في الأغلب، لإرتياد المراعي الفسيحة والمياه لحيواناتهم، وهؤلاء مثل **البربر والترك والصقالبة.**
- **المرتبة الثالثة:** من كان معاشه منهم في الإبل، وهم أكثر ظعنا وأبعد القفر مجالا، فهم يوغلون الترحال في فصل الشتاء، بحثا عن الكلأ، ولصعوبة تكيف الإبل مع البرودة الشديدة، فلا يعرفون بذلك استقرارا، ولهذا هم أشد الناس توحشا، وبعدا عن الحضارة، وهؤلاء هم **العرب.**

وحول الطباع والسمات الثقافية، التي تميز العمران البدوي عن الحضري، يعقد ابن خلدون مقارنة بينهما، منطلقا من ملاحظاته المستقاة، من مخالطته ومعايشته، للقبائل البدوية خاصة في المغرب الأوسط، وكذلك للملوك والأمراء في الدول، التي عاش وشغل مناصب سياسية فيها، ولكونه أيضا حضري المولد والنشأة. إذ يقرر أن أهل البدو، أقرب إلى الخير من أهل الحضر، وسبب ذلك أن حياة البدو هي حياة الفطرة الأولى، وأن النفس البشرية في بدايتها تكون على الفطرة، وهي لذلك مهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها، ولأن من خواص البدو التعاون على الكسب والمعاش وهي من عوائد الخير، ترسخت فيهم. وأما أهل الحضر، ولكثرة انشغالهم بفنون الملاذ، وعوائد الترف، والإقبال على الدنيا، والعكوف على شهواتهم منها، فقد تلوثت أنفسهم، بكثير من مذمومات الخلق والشر.

وعلاوة على ذلك، يذهب ابن خلدون في أن أهل البدو، أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر، ومرد ذلك انغماس أهل الحضر في النعيم والترف، وتركهم أمر المدافعة عن أنفسهم وأموالهم إلى الحاكم الذي يسوسهم، والحامية أو أعوان الأمن في حراستهم، أما أهل البدو فهم متفردون عن المجتمع، وبعيدون في الضواحي عن الحامية، ويدافعون عن أنفسهم بما يملكون من أسلحة، ومن ثم صار لهم البأس خلقا، والشجاعة سجية. وفي هذا السياق، يرى ابن خلدون أن ارتباط سكان المدن بأهل الحكم والإدارة، يفسد فيهم البأس، لأن الرؤساء والأمراء هم المالكون لأمر الناس، وليس لأحد أن يملك أمر نفسه، فالأحكام السلطانية تنقص في أهل الحواضر بأسهم، وتخضد الشوكة منهم، عن طريق العقاب والتأديب، وهو الحال بالنسبة للأحكام التعليمية أيضا، والتي تفرض على المتعلمين توقير مشايخهم ومدرسيهم والهيبة فيهم، للأخذ عنهم. ومقابل ذلك، فإن البدو أشد بأسا، لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب.

وبذلك، فإن الحكام والدولة في الحضر، يمثلون مؤسسات الضبط الاجتماعي، وبالتالي تمارس هذه المؤسسات القهر والسلطان عن التظالم ودفع العدوان بين السكان، أما العدوان الخارجي فهو من وظائف الحامية من أعوان الدولة. فيما تمارس القبائل البدوية القهر الاجتماعي وضبط السلوك، بالاحتكام إلى كبرائهم من المشايخ، ويتولى الدفاع عن العدوان الخارجي عليهم، حامية الحي من فتيانهم المعروفين بالشجاعة. وفي هذا السياق، يبرز ابن خلدون احد أهم سمات البدو، والمفاهيم الأساسية في علم العمران البدوي، والمتمثلة في ***"العصبية"*** والتي يقصد بها "صلة الرحم الطبيعية في البشر، وما يتصل بها من النسب والمصاهرة، التي تدفع بالنغرة على ذوي القربى وأهل الأرحام، أن ينالهم ضيم، أو تصيبهم هلكة". فالعصبية إذن، موجودة في طبائع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر، وتعظم رهبة العدو لهم. ولأن البدو يمثلون العمران في أولى مراحله (مرحلة الفطرة) فيكونون أقرب إلى الخير وأشد بأسا، فيتعاونون في معاشهم وكسبهم وأمنهم والدفاع عن أنفسهم من العدوان، لأنهم وببساطة جماعة قرابية، تجمع بينهم صلات الدم والنسب، وحول ذلك يقول ابن خلدون: "ولا يصدق دفاعهم وذيادهم، إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد، لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم، إذ نغرة كل أحد نسبه وعصبيته أهم"[52]. لكن اختلاط الأنساب، خاصة في الحواضر مع العجم وغيرهم، يضعف العصبية، ويفقدها تماما.

## 4- الإجتماع السياسي:

أسهم ابن خلدون إسهاما أصيلا، في ميدان الاجتماع السياسي، حيث تناول الاجتماع البشري في علاقته بالسلطة، أو بالأحرى العلاقة بين المجتمع والدولة، وهو الموضوع الرئيسي الذي يعالجه تخصص علم الاجتماع السياسي، والذي خاض فيه العديد من علماء الاجتماع المعاصرين، إلا أن ابن خلدون قد تميز عنهم جميعا، لأنه جعل نشأة الدولة وتطورها، عبر مختلف عهودها، مرهونا بقوة العصبية، وهي نزعة طبيعية في البشر.

والعصبية مفهوم أساسي في الفكر الخلدوني، اقترن بالقبائل البدوية، التي لا تزال تعيش مرحلة الفطرة في حياتها، ولم تتحضر بعد، ولذلك فإن جل العلاقات الاجتماعية المنتجة داخلها، تحكمها صلات الرحم والقرابة والنسب، هذا الأخير الذي قد يكون عاما كالإلتحام الذي يكون بين البطون داخل القبيلة الواحدة، أو خاصا وهو أشد إلتحاما، مثل العائلة الواحدة. وتكون الرئاسة لأقوى

[52] المرجع السابق، ص 101.

العصبيات في القبيلة، حتى يقر لها بالإذعان والإتباع من العصبيات الأخرى، ويشترط فيمن يتولى الرئاسة انتماؤه إلى عشيرة أو بطن عرفت بالشرف والحسب الذي يقصد به أن يعد الرجل آبائه المتعاقبين، على طريقة واحدة من الخير ومسالكه، وأن يكون نسبه إليهم أصيل، وأن لا يكون ملصق لزيق، كأن يكون انتسابه نتاج اختلاط في الأنساب "وهذا مغاير لسر العصبية، التي هي ثمرة النسب وتعديد الآباء"[53].

وإذا كانت العصبية بما تنطوي عليه من قوة وغلبة، هي أساس الحياة السياسية وقيام الدولة، فإن هدفها هو الملك. ويقول ابن خلدون في ذلك:"وذلك لأنا قدمنا أن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة، وكل أمر يجتمع عليه، وقدمنا أن الآدميين بالطبيعة الإنسانية، يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع، وحاكم يزع بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية، وإلا لم تتم قدرته على ذلك، وهذا التغلب هو الملك، وهو أمر زائد على الرياسة، لأن الرياسة إنما هي سؤدد، وصاحبها متبوع، وليس له عليهم قهر في أحكامه، فأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر"[54].

ويخبرنا ابن خلدون أن صاحب العصبية إذا بلغ رتبة معينة، طمع في التي أرفع منها، وحال بلوغه رتبة السؤدد والإتباع، ووجد السبيل إلى التغلب والقهر، فإنه لا يتركه، لأن السيطرة فطرة إنسانية، ولن يتحقق له ذلك، إلا بتأييده ومناصرته من عصبيته. ويستطرد ابن خلدون، في وصف الدور الذي تلعبه العصبية في الملك، بقوله:"ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها، طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها، فإن كافأتها أو مانعتها، كانوا أقتالا وأنظارا، ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها، شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها إلتحمت بها أيضا، وزادت قوة في التغلب إلى قوتها، وطلبت غاية من التغلب والتحكم، أعلى من الغاية الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة فإذ أدركت الدولة في هرمها، ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات، استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها، وإن انتهت قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة، وإنما قارن حاجتها إلى

[53] المرجع السابق، ص 105.
[54] المرجع السابق، ص 109.

الاستظهار بأهل العصبيات، انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها، وذلك ملك آخر دون الملك المستبد"[55].

فالملك والحال هذه، يستمد قوته من العصبية، وأن الدولة القوية إنما هي قوية بعصبيتها، التي ترغم العصبيات الضعيفة، على الانضواء تحت لواءها، طلبا للحماية والأمن، فتشكل بذلك تحالفات أو اتحادات، تزيد من قوة الدولة، لكن الملك غالبا ينتزع من الدولة الضعيفة، لضعافة عصبيتها. ويعرض ابن خلدون مراحل تطور الدولة ويربطها بقوة العصبية، فالدولة تنشأ وتترعرع في ظل العصبية، التي تكون متجذرة في البدو، لتوحشهم وخشونتهم وبأسهم، ثم إذا حصل الملك، تبعه الرفه واتساع الأحوال، ولكن انغماس الملوك والأمراء في البذخ والترف والرفه، يذهب فيهم خشونة البداوة، وتضعف العصبية والبسالة بينهم، حتى أن أبنائهم يترفعون عن خدمة أنفسهم، ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية، فيصير ذلك خلقا لهم وسجية. فتأخذ العصبية في الضعف والتراجع، بتعاقب الأجيال، إلى أن تنقرض فيهم، وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء. وهكذا يبين لنا ابن خلدون أن الإفراط في الرفه، هو أعظم عوامل إضعاف العصبية، التي بضعفها تضعف الدولة وتنقرض، فالعصبية هدفها الملك، وهي التي تمنح الدولة قوتها، لكن بلوغ الملك والأخذ بمذاهبه، ينقلب إلى ضعف العصبية وانكسارها.

## 5- الاجتماع الاقتصادي:

تناول ابن خلدون في نظريته الاقتصادية في العمران البشري، التداخل بين مختلف النشاطات الاقتصادية ومقومات البيئة الطبيعية، ومتطلبات البيئة الاجتماعية، وقد تدرج في تبيان ذلك، منطلقا من شرح مفهومين أساسيين، في الحياة الاقتصادية للعمران، هما الرزق والكسب. ويقصد بالرزق تلك المنفعة أو الفائدة، التي يجنيها الإنسان، عن طريق سعيه أو اجتهاده، إما من كسبه أو عمله، وإما دون سعي منه في ذلك، وهو ما يحصل إليه، من الله تبارك وتعالى، كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله. وأما الكسب فهو السعي في الإقتناء والقصد إلى التحصيل، ويعني به ابن خلدون العمل.

[55] المرجع السابق.

والعمل هو ضروري في العمران البشري "فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول"[56] وإن كان الله تعالى يرزق عباده، بما يحصل لهم، بغير حساب. فالإنسان لا ينتفع من حياته إلا بالعمل أو الكسب، لذلك فإنه يعد قيمة الأعمال البشرية. كما يصنف ابن خلدون الكسب إلى عدة صنوف، مثل: الصنائع كالحياكة والحدادة والنجارة..، ورعي الحيوانات أو اصطيادها، وفلح الأرض وزراعتها، التجارة بما فيها المعادن النفيسة كالفضة والذهب وكذلك الحديد والنحاس..، وقد يحصل أيضا عن طريق الغرامة أو الجباية، والتي تتحدد وفق قانون متعارف عليه.

ثم يستطرد ابن خلدون في شرح قيمة الأعمال الإنسانية، وارتباطها بأنواع الصنائع والمعادن النفيسة مثل الذهب والفضة، وصلتها بالعمران البشري، فيقول:"ثم إن الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة، قيمة لكل متمول، وهما الذخيرة والقنية لأهل العالم في الغالب، وإن اقتنى سواهما في بعض الأحيان، فإنما هو لقصد تحصيلهما، بما يقع في غيرهما من حوالة الأسواق، التي هما عنها بمعزل، فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة"[57]. والواقع أن ابن خلدون بذلك قد سبق ***نظرية التجاريين*** ***Mercantalism*** التي ذهبت إلى أن ثروة الأمة، تتمثل فيما تحوزه من معدن نفيس كالذهب والفضة، والعمل المنتج هو الموجه أساسا نحو اقتنائهما، وهذا بالضبط ما ذهب إليه ابن خلدون، حين قال أن "القصد من العمل هو تحصيلهما" أي الحصول على الذهب والفضة[58].

هذا، ويتواءم الكسب ونمط العمران الذي يمارس فيه، ويحدد مراحل تطوره أيضا، فالفلاحة تمثل أول صنوف الكسب التي عرفها الإنسان، وهي متركزة في البدو، الذي يمثل أولى مراحل العمران البشري، وهو لذلك، لا يحتاج إلا البسيط من الصنائع. أما جودة الصنائع والتأنق فيها، فهي متمركزة في الأمصار والحواضر المستبحرة في العمران، إذ يقرر ابن خلدون أن "رسوخ الصنائع في الأمصار، إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها، والسبب في ذلك ظاهر، وهو أن هذه كلها عوائد العمران وألوان". كما يربط ابن خلدون بين العمل ودرجة العمران البشري، حيث أن الأمصار التي يقل عدد سكانها يقل الرزق والكسب فيها، أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية، ولكنه يكون أوسع أموالا، وأشد رفاهية، في الأمصار التي يكثر عدد سكانها.

---

[56] المرجع السابق، ص 284.
[57] المرجع السابق، ص 285.
[58] محمد علي محمد، مرجع سابق، ص 76.

ويلاحظ ابن خلدون فضلا عن ذلك، حقائق اقتصادية أخرى، فالعمل ذاته يتبع قانون العرض والطلب، إذ أن قيمة العمل ترتفع عند زيادة الطلب، ومن ثم تكون أجور العمال مرتفعة بوجه عام، في المدن المستبحرة في العمران، ومرد ذلك، إلى ارتفاع مستوى المعيشة في المدن، كما أن المترفين من أهل المدن، يترفعون عن خدمة أنفسهم، مما يتيح الفرصة أمام العمال، للحصول على أجور أعلى. ويبرر ابن خلدون سبب غلاء الصنائع والعمران والأعمال في المدن الموفورة، بثلاثة أسباب، نذكرها على التوالي:

**1**- كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر، بكثرة عمرانه.

**2**- اعتزاز أهل الأعمال، لخدمتهم وامتهان أنفسهم، لسهولة المعاش في المدينة، بكثرة أقواتها.

**3**- كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم، إلى امتهان غيرهم وإلى استعمال الصناع في مهنتهم، فيبذلون في ذلك لأهل الأعمال، أكثر من قيمة أعمالهم، مزاحمة ومنافسة في الإستئثار بها، فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف، وتغلو أعمالهم.

## رابعا: علم العمران البشري الخلدوني وعلم الاجتماع الأوروبي

يمثل علم العمران البشري، الشكل الأول والأصيل، الذي تطور عنه علم الاجتماع الحديث، على يدي الفيلسوف الفرنسي **أوجست كونت A.Comte (1797-1853)**، وهو الذي منح علم العمران البشري، أول تطوراته على مستوى التسمية، ليصبح فيما بعد ***علم الاجتماع Sociologie***، وإننا في هذا المقام، لن نناقش كيف تبلور علم الاجتماع في أوروبا، بقدر ما نريد تبيان أوجه التماثل والاختلاف بين علم العمران البشري وعلم الاجتماع الحديث، حتى تتضح بشكل أفضل، إسهامات ابن خلدون مقارنة بمن يدعون أنهم مؤسسوه، وذلك من خلال عرض أهم تطوراته على مستوى المفاهيم، الفروع، الموضوعات، وكذا المناهج.

إن بدايات علم الاجتماع الأوروبي، لم تنفك عن ذلك المنحى التطوري الذي اتسمت به، النظرية الاجتماعية لإبن خلدون، والتي كان يهدف من خلالها، إلى وضع قانون تطور العمران البشري، بما في ذلك الدول، حيث جعل لها أطوارا وأعمارا، قياسا على دورة حياة الكائن البشري، أما أوجست كونت فقد درس المجتمع من حيث النظام الثابت للظواهر، الذي اصطلح على تسميته

الإستاتيكا الاجتماعية، أما التطور الذي يطرأ عليه، فقد اصطلح على تسميته بالديناميكا الاجتماعية، هذه الأخيرة، التي تلخص قانون المراحل الثلاث، الذي صاغه وفقا لتطور منهج التفكير الإنساني، وعيه، فإن المجتمع الإنساني، يمر في تطوره بثلاثة مراحل متعاقبة وهي:

المرحلة الدينية المرحلة الميتافيزيقية المرحلة الوضعية

كذلك، نجد الفيلسوف الإنجليزي **هربرت سبنسر H.Spencer (1820- 1903)** الذي أسهم بدوره في صياغة نظريتين هما: نظرية التطور ونظرية العضوية، وهو يعتقد أنه طالما أن كل صور الطبيعة، هي تحولات للمادة، فإن نمط هذه التحولات تتضمنه العمليات المادية، وعلى الرغم من أن العالم يظهر صورا عديدة للتحول، فإن عملية التحول الأساسية عامة بين كل هذه الصور، وهي الخاصية الرئيسية المميزة لطبيعة الأشياء، وعملية التحول هذه، التي تكمن في قلب طبيعة كل الأشياء، هي التي اصطلح سبنسر على تسميتها بالتطور. والذي فسر المجتمع بناءا على قوانينه، كما وضع المماثلة بين المجتمع والكائن العضوي، وتعتبر هذه النظرية العضوية، أكثر شهرة من قانون التطور.

لكن ما يميز ابن خلدون عن هؤلاء، اعتماده على الملاحظة الدقيقة، والمعايشة الواقعية، لكل التطورات، التي وصفها في كتاب التاريخ، فهو لم يسقط قوانين الطبيعة على المجتمع، ولم تكن استنتاجاته مبنية على مجرد التخمين والظنون، وأكثر من كل ذلك، فإن ابن خلدون قضى ما يزيد عن الربع قرن من حياته مترحلا ومنتقلا، بين المدن والأمصار وقبائل البدو، فيما لم يبرح معظم فلاسفة الفكر الأوروبي مجتمعاتهم الأصلية، حتى تعميماتهم حول التطور الاجتماعي، كانت من واقع مجتمعاتهم أيضا، ولقد تفوق ابن خلدون عنهم، وعن من سبقوه من الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين، انه كان يبحث في الأسباب والعلل والعوامل الظاهرة والمستترة أو الخفية، مبرزا أن الظواهر الاجتماعية، لا ترد إلى عامل بعينه، لذلك درس تطور المجتمع والدولة، في ضوء تعدد العوامل، فلم يغفل العامل البيئي ولا الاقتصادي ولا القرابي (العصبية) في صياغة نظرية التطور الاجتماعي، وأنه قد سبق غيره أيضا، في دراسة المجتمع البشري، في حالات استقراره وحركيته أو ديناميته.

كما قام بالتحري والتدقيق والتمحيص والتثبت، من كل ما كتبه المؤرخون من قبله، حول كل ما يرده من أخبار منقولة، وكتابات ورسائل، وهو بحق يجسد صورة الباحث الحديث، الذي لا

يكتف بمجرد السماع والنقل فحسب، وذلك بهدف كشف الحقائق، ودحض المزيف والمغلوط منها. وبين بذلك قواعد البحث والمنهج التاريخي بمفهومه العلمي المعاصر.

وأنه كان السباق أيضا في وضع تخصصات لعلمه (علم العمران البشري)، سبقت التخصصات الحديثة لعلم الاجتماع، فلم تكن المادة المعرفية المتوصل إليها، مجرد حشو وتكديس، فقد أفرد لكل منها بابا أو مجالا، أو بالأحرى تخصصا. فالتخصصات الحديثة لعلم الاجتماع مثل علم الاجتماع الصناعي، وعلم اجتماع العمل والتنظيم، هي منبثقة عن ما قدمه ابن خلدون حول الاجتماع الاقتصادي، وأن علم الاجتماع الحضري، وعلم الاجتماع السياسي، وعلم الاجتماع البيئي، وعلم اجتماع المعرفة، كلها تمثل تخصصات أساسية، في علم العمران البشري، وإن اعتقد علماء الاجتماع الأوروبي أنها حديثة نسبيا، وأنها ظهرت لتعقد الحياة الاجتماعية في أوروبا، وكذلك لغزارة المادة النظرية المتراكمة في هذه المجالات، فيما بعد عصر النهضة، وأن ما يعرف حاليا بعلم اجتماع الحياة اليومية، وعلم اجتماع الثقافة وغيرها، ما هي إلا فروع لفروع أخرى، أكثر منها أصالة.

هذا، وقد برزت مفاهيم أساسية، في علم العمران البشري، مثل العصبية التي اقترنت بخصائص الحياة البدوية، والتي يعبر عنها في علم الاجتماع الأوروبي بالتماسك أو التضامن الاجتماعي، وأن مصطلح التبدل في الأحوال، والذي ورد ذكره في بعض المواضع في المقدمة، هو ما يصطلح عليه حاليا بالتغير الاجتماعي، وأن الكسب هو العمل، وأن الصنائع، ترادف المهن والوظائف. ويعني هذا أن العديد من المفاهيم السوسيولوجية، قد ظهرت وعرفت واستخدمت، منذ قرون قبل أن يظهر علم الاجتماع الحديث، ومفاهيمه.

## خاتمــة:

في الأخير يمكن القول، أن للمغرب العربي، إيقونة وجوهرة نفيسة، من أثمن ما تتباهى به المجتمعات الإنسانية، في مشارق الأرض ومغاربها، فإبن خلدون هو الفيلسوف والباحث والمؤرخ والشاعر والرحالة، الذي نهل من فكره العالم بأسره، ما تعلق بأصول البحث العلمي، وقواعده المنهجية وتقنياته، ويكف أنه مؤسس علم العمران البشري، الذي يلخص تاريخ الاجتماع الإنساني وطبائعه وأحواله، ونأمل بعد كل ما قدمناه، حول العلامة البحاثة ابن خلدون، أننا قد وفينا حقه،

ولو بجزء قليل من الإفادة عن حياته وفكره، ونسأل الله تعالى أن يوفق كل متعلم باحث عن الحقيقة العلمية، إلى دروب النور و الصواب.

**المصـادر والمراجـع:**

**1**- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار صادر- بيروت، ط 2، 2009.

**2**- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزء الثاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، 2000.

**3**- عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وحواشيها: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، 2004.

**4**- إبراهيم مدكور وآخرون، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975.

**5**- عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة: محمد الشريف بن دالي حسين، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، 1988.

**6**- محمد علي محمد، تاريخ الفكر الاجتماعي (الرواد والاتجاهات المعاصرة)، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية، 2008.

**7**- يحي مرسي عيد بدر، علم الاجتماع (مقدمة في سوسيولوجيا المجتمع)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر- الإسكندرية، ط1، 2008.